أثر الإيمان في السلوك

بقلم الأستاذ الدكتور / مبارك حسن حسين
الاستاذ بقسم العقيدة والفلسفة

تمهيد :

١ ـ مفهوم الإسلام والإيمان والإحسان .

الاسلام دين الفطره الانسانية يلائم الطبع السليم والعقل الصحيح تقوم عقيدته وشريعته على أساس الايمان الكامل بالله وبكتبه ورسله وباليوم الآخر . .

فإذا كان مفهوم الأسلام يعنى الامتثال والطاعه والخضوع لأوامر الله ـ تعالى قال تعالى « ومن يسلم وجهه إلى الله وهو محسن فقد استمسك بالعروة الوثقى وإلى الله عاقبة الأمور » لقمان الآية ٢٢ .

وقال تعالى : « ومن أحسن دينا ممن أسلم وجهه لله وهو محسن واتبع ملة ابراهيم حنيفا واتخذ الله ابراهيم خليلا » النساء ١٢٥

فإن مفهوم الايمان هو التصديق القلبي والاقرار اللسانى والعمل بمقتضى هذا التصديق وذلك الاقرار .

وإذا كان مفهوم الاحسان هو الاخلاص فى العمل واتقانه على الوجه الأكمل كما أمر المولى عز وجل بقوله « إن الله يأمر بالعدل والاحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون » النحل ٩٠

فترتيب هذه المفاهيم الثلاثة من اعتقاد وامتثال وطاعة وخضوع ثم إحسان وهو يعنى الاخلاص .

فإن هذا أسلوب تربوى عظيم جاء به هذا الدين الحنيف حيث يحث على الايمان والطاعه والعمل والاخلاص .

وهذا مايلائم الفطره الانسانية التى فطر الله الناس عليها .

قال الله تعالى « فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرت الله التى فطر الناس عليها لاتبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لايعلمون » الروم ٣٠

هذا وقد شيد الاسلام صرح الحياة الطيبة على أساس الايمان الصحيح والعمل المخلص والاحسان فيه قال تعالى « من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبه ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون » .

وإذا كان الايمان هو القاعدة الأساسية فى بناء الحياة الطيبة الصالحة فى نظر الاسلام ، فإنه أساس الاصلاح والتهذيب والتربية السليمة .

قال تعالى : « والعصر إن الانسان لفى خسر إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحاً وتواصوا بالحق وتواصوا بالصبر » العصر .

ومن ثم ندرك المغزى العظيم من اقتران العمل بالايمان فى هذا الدين القيم قال تعالى « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات إنا لانضيع أجر من أحسن عملا الكهف الآية ٣٠

وقال تعالى: «وبشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات بأن لهم جنات تجرى من تحتها الأنهار » سورة البقرة .

وقال « إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلا خالدين فيها لايبغون عنها حولا » الكهف ١٠٧ — ١٠٨

إن رسالة السماء التى جاء بها الاسلام تهدف أول ما تهدف إلى الاصلاح

قال تعالى : « إن أريد إلا الاصلاح ما استطعت وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب » سورة هود الآية ٨٨

فرسالته تهدف إلى تهذيب النفوس وإصلاحها على قيم ثابته أساسها الايمان . . . قال تعالى : « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » لحياة الناس صورة ظاهرة لما فى قلوبهم ، وإن سلوكهم يتلون باللون الذى يبعثه ما فى القلب من كفر أو إيمان ، من غى أو رشد ، من هدى أو ضلال من استقامة أو انحراف .

والأدلة : على أن الايمان هو قاعدة التربية السليمة والاصلاح القويم كثيرة منها :

أولا :

١ — مكث النبي ﷺ بمكة فى الدعوة إلى غرس عقيدة التوحيد فى نفوس الناس ثلاثة عشر سنة ، وفى هذه الحقبة الطويله من الزمن لم يأمرهم ببناء مسجد أو صيام أو زكاه أو حج لأنه كان بصدد ما هو أهم وأجدد وهو بنـــاء النفوس على أسس سليمه من الايمان والتقوى والاخلاص .

٢ — تغيير سلوك الانسان العربى راعى الغنم ذى الطباع الغليظة من إنسان كان همه اشتعال الحروب لأتفه الأسباب إلى إنسان يقيم العدالة ويراعى الحق يحب لنفسه مايحب لغيره .

٣ — تغيير سلوك العربى نحو الحديث « أنصر أخاك ظالما أو مظلوماً » فقد عدلة الاسلام وغير اتجاهه بأن جعل نصرة الظالم هو كفه عن الشر والوقوف مع الحق ولو كان مرا « كونوا قوامين لله شهداء بالقسط » .

٤ — توحيد الناس على الايمان بالله الواحد ودعوتهم إلى جمع الكلمة

وتوحيد الصف على أساس الايمان قال تعالى « يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ولا تموتن إلا وأنتم مسلمون .

واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا وكنتم على شفا حفرة من النار فأنقذكم منها ، كذلك يبين الله لكم آياته لعلكم تهتدون » آل عمران الآيتان ١٠١ — ١٠٢

٥ — فبالايمان أصبحوا خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وأصبحوا رحماء بينهم أشداء على الكفار قال تعالى : « محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعا سجداً يبتغون فضلا من الله ورضوانا سيماهم فى وجوههم من أثر السجود » سورة الفتح الآية ٢٩

٦ — فبالايمان أصبحوا أخوة متحابين يؤثرون على أنفسهم ويفضل بعضهم على بعض « والذين تبوءوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك المفلحون » سورة الحشر ٩

٧ — إن الايمان هو الذى حول عمر بن الخطاب من رجل منحرف فى الجاهلية ، جباراً ـ وقد بلغ من انحرافه أن اتخذ إلها من الحلوى وعبده فلما جاع يوما أكله .

وبلغ من الزيغ فى العقيدة أنه خرج يوماً ليقتل رجلا يقول ربى الله به فلما مست آيات الايمان شغاف قلبه وآمن وأسلم ـ تحول إلى رجل عطوف رقيق القلب يشفق على رعيته ويتفقد أحوالهم ليل ، نهار .

٨ — ماورد فى صحيح مسلم من أن رجلا نزل ضيفاً على رسول الله ﷺ فأمر له الرسول ﷺ بحلب شاة ، فشرب لبنها ، فلم يشبع فأمر له بحلب ثانية فلم يشبع وهكذا إلى سابعه فشرب لبنها ولم يشبع .

ثم بات ليلته ، فلما أصبح تفتحت نفسه للإيمان فآمن ، فقدم له لبن شاة فشربه ، وقدمت له لبن شاة ثانية لم يستتم شرب لبنها وشبع فقال الرسول ﷺ : « إن المؤمن ليشرب فى معى واحد والكافر ليشرب فى سبعة أمعاء » ثم تلا قول الله تعالى : « والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم » .

فما بين ليلة وضحاها تغير سلوك هذا الرجل من إنسان شره لا هم له إلا بطنه إلى إنسان قاصد عفيف ... إن العامل الأساسى فى تغيير سلوكه : الإيمان .. إنه قاعدة التربية الصحيحة والتهذيب السليم .

٩ — مواقف الرسول فى دعوته أمام جحافل الكفار ، حينما عرض عليه عمه أبى طالب طلب الكفار بالكف عن دعوته .. فماذا كان موقف الرسول ﷺ الذى ربى على الإيمان الصادق والعقيدة الراسخة ؟

إن تربيته المؤسسة على الإيمان جعلته يثبت على دعوته بقلب شجاع لا يخشى فى الحق أى قوة بلغت ما بلغت من البشاعة فأعلن كلمته الخالدة « ياعم والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه » .

١٠ — مواقف الصحابة : فى غزوة بدر فى السنة الثانية من الهجرة النبوية .

حينما استشارهم الرسول ﷺ وهم كانوا قلة : هل يقذفون بأنفسهم فى غمار أعدائهم ، وهم كثرة ذات قوة وشكيمة ؟

فقال الرسول ﷺ : « أشيروا على أيها الناس » .

فماذا أجابوا ؟ هل جبنوا وخافوا من أعدائهم؟

أم أن الإيمان جاش فى قلوبهم فجرى على ألسنتهم بكل شجاعة وأقدام نحو أعدائهم ؟

الجواب :

أنهم انطلقوا وكأنهم رجل واحـــد ينطقون بهذه الكلمات الهادرة « يارسول الله أمض لما أمرك الله . . . والذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد ، أولئك هم المؤمنون حقاً لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم وينطبق عليهم وصف المؤمنين الصادقين فى إيمانهم كما قال الله تعالى : « إنما المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله أولئك هم الصادقون » الحجرات ١٥

١١ — أن التربية القائمة على هذا الإيمان الصادق هى التى جعلتهم لايخشون جحافل الكفار حينما هتف هاتف : إن أعداءكم قد جمعوا لكم العدد الكثير من الجيوش والعدة القويه من آلات الحروب .

فماذا كان موقفهم فى تلك الساعة الحاسمه . !

إن موقفهم كان يتضح من منطوق كلامهم الواثق بالله تعالى ، المؤمن به ، والمتوكل عليه حق توكل . . وبذلك قالوا حسبنا الله ونعم الوكيل .

وكانت العاقبة لم يمسسهم سوء وإنما يدل خوفهم أمنا ، وضعفهم قوة بسبب قوه إيمانهم بالله تعالى « الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل فانقلبوا بنعمة من

الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين » الآيات ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٤ ، ١٧٥ آل عمران .

١٣ — إيمان أصحاب الأخدود : وقصتهم أن جماعة من المؤمنين ، اضطهدوا من قبل الكفار الوثنيين ، الذين كانوا يريدون أن يخرجوهم من إيمانهم ليكفروا بالله العزيز الحميد .

فلما ثبت هؤلاء المؤمنون على عقيدتهم عمد الكفار إلى حفر الخدود لهم وأججوا فيها ناراً وصفت بأنها ذات الوقود .

والقوهم فيها حتى أن امرأة كانت مترددة وهى تحمل طفلالها فى المهد فنطق هذا الطفل « قعى ولا تخافى إنك على الحق المبين .

وقد ذكرهم القرآن الكريم ضارباً بهم المثل الأعلى فى الثبات على الإيمان وقوة العقيده فقال الله تعالى : « قتل أصحاب الأخدود النار ذات الوقود إذهم عليها قعود ، وهم على ما يفعلون بالمؤمنين شهود ، وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد » سورة البروج — الآيات من : ٤ : ٨ .

١٣ — إيمان أصحاب الكهف :

وقصتهم أن فتية من الشباب آمنوا بالله وكان قومهم يعبدون الأصنام ويسجدون لها ، وهؤلاء الفتيه أبو السجود للأصنام . . فأراد قومهم أن يعذبوهم . فقروا هاربين منهم والتجأوا إلى الكهف ليستتروا به من أعين قومهم فذكر القرآن الكريم قصتهم ضاربا بهم المثل فى الثبات على الإيمان فقال تعالى : « أم حسبت أن أصحاب الكهف والرقيم كانوا من آياتنا عجبا . إذ أوى الفتية إلى الكهف فقالوا ربنا آتنا من لدنك رحمة وهىء لنا من

أمرنا رشداً فضربنا على آذانهم فى الكهف سنين عدداً ثم بعثناهم لنعلم أى الحزبين أحصى لما لبثوا أمدا . نحن نقص عليك نبأهم بالحق إنهم فتيه آمنوا بربهم وزدناهم هدى ، وربطنا على قلوبهم إذ قاموا فقالوا ربنا رب السموات والأرض لن ندعو من دونه إلها لقد قلنا إذا شططا » الآيات : ٩ ، ١٠ ، ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٤ الكهف .

النتيجة: إن التربية الصحيحة هى التى تقوم على الإيمان الصادق والعقيده الراسخة الناشئه عن اليقين بالله وحده الواحد .

فالايمـــان بالله . . . يضع فى القلب نوراً ، وفى النفس حكمه ، وفى الجوارح عصمته من الذلل والوقوع فى الأخطاء .

روى مسلم أن رجلا قال يارسول الله قل لى فى الاسلام قولا لاأسأل عنه أحد غيرك . قال : « قل آمنت بالله ثم استقم » .

فدعائم الاصلاح والتربية : الايمان ثم الاستقامه . . . لأنها مظهر هذا الايمان وأثر من آثاره ، وهى صفه حسنه تدعو إلى السلوك الحسن وتضفى على الجوارح البعد عن الزلل ، وبها يسلم الانسان خطى الثواب والحكمه ، ويصرف إلى سبيل الرشاد عزمه .

وبالجمله إنها مناط الرضا ، ومبعث اليمن والبركة وطريق الخلاص فى هذه الحياة « وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه » . أنها المنهج القويم ، فالايمان يصنع المعجزات ويغير السلوك إلى الطريق المستقيم ويهدى التى هى أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً ، وأن الذين لايؤمنون بالآخره أعتدنا لهم عذابا أليما » .

والايمان ثمرته العمل الصالح الذى يعود على الانسانية بالخير والسعادة بخلاف الايمان القائم على التقى والأمانى الكاذبه والاشارات الزائفه

فإنه إيمان سلبي لا ينفع صاحب فضلا على أنه لا يجلب عليه إلا سوء يجز به ولا يجد له من دون الله ولياً ولا نصيراً ، ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يظلمون نقيرا » ١٢٣ — ١٢٤

وقال الرسول ﷺ : « ليس الايمان بالتمنى ولكن ما وقر في القلب وصدقه العمل ، وأن قوماً قدأ غرتهم الأمانى حتى خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم وقالوا نحسن الظن بالله ولكن كذبوا ، لو أحسنوا الظن بالله لأحسنوا العمل » رواه مسلم ... هذا والله الموفق إلى أقوم طريق ...

د . مبارك حسن حسين